٦ ـ بين القاهرة وطوس

نيسابور

للدكتور عبد الوهاب عزام

برحنا سبزوار والساعة ثمان من صباح الخميس ثانى رجب سنة ١٣٥٣ (١١ أكتوبر سنة ١٩٣٤) فضربنا فى السهل صوب الشرق نصف ساعة . ثم ارتقينا جبلاً هبطنا منه الى سهل فسيح ، وهكذا رأينا إيران مابين قصر شيرين وطوس ، سهولاً تحيط بها جبال ، فما يزال المسافر على جبل أو فى سهل يفضى البصر فيه الى جبل حيثما توجه . هبطنا سهلاً كثير الشجر والزرع ، قد انتثرت القرى فى أرجائه ، تحيط بها الأشجار الباسقة ، ورأينا زروعاً شتى منها البطيخ والقطن . ورأينا لوز القطن قد تفتح ، ولما تعدُ الأعواد ذراعاً

وبعد مسيرة ساعة وربع من سبزوار ، نزلنا بقرية على الطريق اسمها شوراب ، فأكلنا من عنبها واسترحنا قليلاً . ثم استأنفنا السير تلقاء نيسابور والقلوب يملؤها الشوق ، والفكر يستجمع ما وعى من أحاديث التاريخ عن المدينة العظيمة ذات المياه والقرى والأشجار — المدينة ذائعة الصيت فى العلم والأدب التى نشأت علماء يفتخر بهم المسلمون على الأدهار ، بلد مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح ، والحاكم المحدث الكبير ، وأبى القاسم القشيرى صاحب الرسالة ، ومحيي الدين النيسابورى الفقيه ، وفريد الدين العطار وعمر الخيام — المدينة التى يقول فيها الخيام

شراب نشابور وآب دبير چوانى كند گرخورد مردبير

وترجمته (شراب نيسابور وماء دبير يردّان الشيخ الى شبابه)

ويقول الأنورى :

حبذا شهر نشابوركه در بشت زمين
گربهشت است همين است وگرنه خود نيست

وترجمته « حبذا مدينة نيسابور ! إن يكن على ظهر الأرض جنة فهذه ، وإلا فلا جنة »

نيسابور مدينة أزلية ، يروى الفرس أن بانيها طهمورث ثالث الملوك البيشداديين ، وأن اسكندر الكبير خربها ثم عمرها شابور الملك الساسانى فسميت باسمه . وقد عرفها اليونان القدماء وسموها نيسوس . ويقال إنهم سمو باكوس إله الخمر ديونيسوس أى إله نيسابور

وقد تعاقب عليها البُناة من الساسانيين والعرب والغزنويين والسلاجقة كما توالت عليها النوائب من الزلازل والغارات فى عصور شتى . أصابها زلزال عظيم سنة نيف وخمسمائة من الهجرة وسنة ٦٦٦ وسنة ٨٠١ . ودمرها الغُزّ سنة ٥٤٨ حين غلبوا السلطان سنجر السلجوق وأسروه . وهى المصيبة التى نظم فيها الأنورى الشاعر الفارسى قصيدته المعروفة « دموع خراسان » ولكن المدينة على رغم هذه المصائب كانت فى معظم العهد الاسلامى قبل التتار عامرة مزدهرة حتى سميت أم البلاد وقبة الاسلام

وقد رووا فى عمرانها ونضرتها ما يستبعده العقل . فمن عجائبها الاثنى عشرية أنه كان بها اثنا عشر معدناً للفيروز والنحاس والرمر وغير ذلك . واثنا عشر نهراً تنحدر من الجبال ، واثنا عشر مائة مدرسة (أى ألف ومائتان) واثنا عشر مائة قرية ، واثنا عشر ألف قناة تجرى من اثنى عشر ألف ينبوع

قال ياقوت ، وهو ممن أدركوا غارات التتار :

« وأصابها الغز فى سنة ٥٤٨ بمصيبة عظيمة حيث أسروا الملك سنجر وملكوا أكثر خراسان ، وقدموا نيسابور ، وقتلوا كل من وجدوا ، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يعرف ، وخربوها وأحرقوها ، ثم اختلفوا فهلكوا . . واستولى عليها المؤيد أحد مماليك سنجر فنقل الناس الى محلة منها يقال لها شاذ ياخ وعمّرها وسوّدها ، وتقلبت بها أحوال حتى عادت أعمر بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلا وأموالاً لأنها دهليز المشرق ، ولا بد للقوافل من ورودها . » وقال بصفها قبيل غارة التتار : « وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات » وقال : « لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها »

ثم كانت القارعة التى دمرت حضارة الاسلام ــ كارثة التتار ــ فأحرقوا وهدموا ، وقتلوا وسبوا وسلبوا ، وتركوها خاوية على عروشها ، ولم تنسها المصائب من بعدُ ، فقد أغار عليها الأزبك وغيرهم فى عصور مختلفة

ذكرنا هذه الخطوب ونحن قادمون على نيسابور ، ولكن خيال المدينة الكبيرة المزدهرة المزدحمة بمساجدها ومدارسها كان يغلب علينا فنمنى النفس برؤية نيسابور فى زينتها وجلالها

وردناها والساعة عشر وثلث فأبصرنا إلى يسار الجادة قرية

هى بقية الأحداث من نيسابور ، كما يبقى من الجنة الناضرة عود يابس ، أو من الرجل العظيم قبر دارس

ماتت المدينة فلم يبق إلا أن نزور قبرها فيما بقى من قبور أبنائها ، فها نحن أولاء نسرع المسير إلى قبر عمر الخيام . وقفت بنا السيارات بعد قليل على حديقة بعيدة من البلد فدخلنا بستاناً كبيراً تتوسطه طريق واسعة ، فهبطنا درجات إلى مستوى سرنا به خطوات ، وهبطنا إلى مستوى آخر ، وبجانبنا قناة تنحدر إلى المستوى الأسفل فتفضى إلى حوض فى وسط الطريق . وتنتهى الطريق إلى مسجد صغير جميل نقشت على بابه آيات من القرآن ، واسم الشاه طهما سب الصفوى الذى بناه . وفى المسجد ضريح لأحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوى رضى الله عنهم ، واسمه محمد المحروق وينتهى نسبه إلى زين العابدين على بن الحسين

وإلى يمين المسجد مصطبة لها درجات قليلة ولها سياج من الرخام وفى وسطها عمود كتب على أوجهه أبيات من الشعر . فهذا قبر عمر الخيام . وقد سمعت ممن زاروا القبر قبلاً أنه كان فى طاق فى جدار المسجد (وفى جدار المسجد على جانبى الباب طاقان) ثم نقل إلى هذا الموضع

لم يعجبنا قبر الخيام ، فقلت لوزير المعارف ، كان ينبغى أن تكون بجانب القبر أشجار تهدل أغصانها عليه ، وتنثر الأزهار فوقه كما وصف الخيام قبره قبل موته ، وكما رآه نظامى العروض بعد موت الخيام فوجده مصداقا لما قال . قال نعم . لابد أن يكون كما وصفت

كتب على صفحة من العمود : « الحكيم عمر الخيام ـ وفاة الحكيم سنة ٥١٧ هجرية ـ » وفوق ذلك رباعية من نظم ملك الشعراء بهار ترجمتها : اجلس إلى قبر الخيام واقض الوطر ، وابتغ فراغ ساعة من غمّ الأيام . إن تسأل عن تاريخ بناء مرقده فهو « أطلب سر القلب والدين من قبر الخيام » (راز دل ودين زقبر خيام طلب)

وعلى الصفحة الثانية رباعيتان ترجمتهما :

عاد السحاب يبكى على العشب الأخضر ، فلا ينبغى العيش بغير الخمر الحمراء . هذا المرج مسرح أبصارنا اليوم ، فليت شعرى من يسرح بصره غداً فى أعشاب قبورنا ؟

نحن لُعَب ، والفلك بنا لاعب ، حقيقة هذه لا مجاز فيها ، كنا لاعبين على بقع هذا الوجود ، فعدنا إلى صندوق العدم واحداً بعد آخر (١)

وعلى الصفحة الثالثة رباعيتان :

ظهر بحر الوجود من الخفاء ، وما استطاع أحد أن يثقب جوهرة الحقيقة هذه ، كلّ تكلم بما يهوى ، وما قدر أحد أن يبين عن الحقيقة

ليس عندنا يقين ولا حقيقة ، ولا يستطاع زجية العمر كله فى رجاء هذا الشك ، هل نأخذ أقداح الصهباء بأيدينا لا نضعها ، ما فرق الصاحى والسكران فى هذه الجهالة ؟

وعلى الصفحة الرابعة رباعيتان :

أولئك الذين كانوا بحار الفضل والآداب ، وصاروا فى كمالهم مصابيح الأصحاب ، لم يجدوا للخروج من هذا الليل المظلم طريقاً ، فحدّثوا بالأساطير ثم أخذهم النوم

إن هذا الدوران الذى يتجلى فيه مجيئنا وذهابنا ، لا تستبين له بداية ولا نهاية ، ولا يستطيع أحد أن يخبر صادقاً من أين جئنا وإلى أين نذهب »

ووراء قبر الخيام مزهرة جميلة كتب على أرضها بألوان النبات : « حكيم عمر خيام » ، ورأينا بجانب القبر خابية ، كأن واضعيها رأوا مناسبة بينها وبين قبر الشاعر الذى كان مستهتراً بالخمر . وقرأت على هذه الخابية أنها موقوفة على مسجد إمام زاده محمد المحروق . فقلت قد وضعت فى غير موضعها ، وقُرنت بما هى منه براء

وقد مُدّ وراء قبر الخيام رواق كبير وضعت فيه كراسى للجلوس ومدت فيه موائد الطعام

استراح الوافدون قليلاً واجتسوا ما شاءوا من أصناف الشراب ثم وقفوا يشربون على ذكر الخيام ، قلت بئس ما ذكرتم صاحبكم ! وانتبذت أنا وزميلى الأستاذ العبادى جانباً وتركنا القوم وخيامهم . وقلت لبعض رفقائنا الايرانيين أين قبر العطار ؟ فلا بد لقادم نيسابور أن يزوره ، فيسّر لنا المسير اليه فذهبت أنا وبعض الحاضرين إلى قبر العطار . سارت بنا السيارات فى طريق غير معبدة فانتهينا إلى حديقة ذابلة الشجر والزهر ، وفى وسطها بنيّة ثمانيّة عليها قبة ، ولجنا الباب خاشعين إلى قبر عال عليه كسوة خضراء ، وإلى رأسه عمود أسود أطول من القامة قليلاً

(١) إشارة إلى لعبة الشطرنج

عليه آية الكرسي وأبيات في مدح الشيخ فريد الدين العطار . لبثنا برهة في حضرة شيخ الصوفية الجليل ، والشاعر المفلق المكثر الذي نظم زهاء ثلاثين منظومة فيها أكثر من ألف ألف بيت — ناظم منطق الطير ، وإلهي نامه ، وأسرار نامه ، وجوهر الذات الخ ومؤلف تذكرة الأولياء ؛ ثم بؤنا بغير ما باء به أصحاب الخيام ، والقلب خاشع . والذكرى الجليلة آخذة على النفس آفاقها

وهنا قصة لا يسعني إهمالها :

بينما أخرج من باب حديقة العطار أحسست بوخزة في كفي فظننت زنبوراً لسعني ، فأخبرت رفيق الشاعر الشاب النابغة رشيد الياسمي فضحك وقال : قبلت الزيارة . قلت : لاغرو أن تكون وخزة من العطار ينبهني بها من الغفلة . ألم يقل معاصرو العطار : « إن شعره سوط السالكين » ؟ قال بلى . ثم ارتجل بيتاً فارسياً

نيس عطار است اين ، زنبور نيست
گر تحمل ميكنى زو دور نيست

(هذه حمة العطار لا لسعة الزنبار ، فان تحملت فهو أهل لذلك)

فأجبته على الفور :

لسع الزنبار كفي عادياً ودواءً كان شعر الياسمي

ولما قمت مشهداً جاء الى شاعرنا النابغة وقد نظم أبياتاً كثيرة في هذه الواقعة أترجمها نثراً فيما يلي معتذراً اليه من هذه الترجمة المرتجلة التي لا تفي بشعره السلس ، ومعتذراً الى القراء عما فيها من مدح :

جاء عزام من أرض مصر المختارة الى نيسابور من أرض إيران ، فأراد أن يقبل تربة العطار إذ ملأت محبته روحه ، وذهب بدءاً الى مرقد الخيام فرأى مكاناً ناضراً زاهراً ، وسمع صيحات الطرب ، ورنات الكؤوس من كل جانب ، ورأى القلوب تفور بناز الصهباء . فقال عزام : أيها القلب دع بساط الشراب والسرور ، واعجل الى العطار ذلك الشيخ الوقور ، فسلك الصحراء رجل الطريق[1] هذا حتى رأى قبراً عليه حجر أسود ، فلثم سدة العطار وطاف في هذه البقعة المباركة . ثم صاح بغتة وقال مضطرباً : قد أصاب كفي زنبار . قال له الياسمي : يا عالم مصر ! بل يا أيها الدر المتلألىء في بحر مصر !

(هذه حمة العطار لا لسعة الزنبار ، فان تتحمل فهو لذلك أهل)

حمة العطار توقظك حتى لا تخلو لذة من ألم[2] إن تبتغ الحبيب فلا بد من السعي الجاهد ، وإن ترد اللذة (نوش) فلا بد من الحمة (نيش) . إن تكن ذقت حلاوة الخيام ، فوخزة العطار خير يا عزام

من يحزك يوقظك من الغفلة ، ومن ينعمك يدعك في غمرة . ووخزة اليقظة تبعدك من الضلال ، واللهو ينأى بك عن السداد ،

وانبعثت حينئذ من هذا الحدث صيحة بينة مفصحة وعتها أرواحنا :

« يا من اختلط وجوده بالعدم ، وامتزجت لذته بالألم !

إذا لم يتداولك الهبوط والصعود ، فكيف تعرف نفسك في هذا الوجود[2] »

رجعنا من العطار الى الخيام فذكرت في الطريق قول حافظ الشيرازي . . .

(يتبع) عبد الوهاب عزام

(١) الطريق هنا طريق الصوفية

(٢) هذان البيتان للعطار نفسه

(١) في الأصل «نيش ونوش» أي الوخزة واللذة وهما كلمتان مقترنتان في الأدب الفارسي تقارب اللفظين

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيل

صحائف سن العشرين

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

والقصة قطعة من شباب لامرتين ، وجذوة من شعوره ، ولحن من شعره . طبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلبها منها أو من ادارة الرسالة أو من أي مكتبة